الحياة الأدبية

في

العصر الأموي

علاقة الأمويين بالشعراء

لقد أدرك الأمويون أهمية الشعراء في الدعاية السياسية لهم وأدركوا أهميتهم في إبراز منجزات الدولة ودحض حجج الخصوم؛ لذلك جمعوا حولهم أكابر الشعراء في ذلك العصر وجعلهم وسيلة إعلامية لمدحهم، وتنمية روح الولاء لهم وتوطيد دعائم دولتهم.

ومن ناحية أخرى كان الأمويون تواقين للشعر، مدركين أهميته ودوره الاجتماعي بغضِّ النظر عن نفعه السياسي.

فقد كتب معاوية إلى زياد أن أوفد إليّ ابنك، فلما قدم عليه لم يسأله عن شيء إلا نفذ منه، حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئًا، فقال له:

- ما منعك من تعلُّم الشعر؟

- فقال:

يا أمير المؤمنين إني كرهت أن أجمع في صدري كلام الرحمن مع كلام الشيطان.

فقال معاوية :

اُغْرُب، فو اللهِ ما منعني من الفرار يوم صفّين إلا قول ابن الأطنابة:

أبت لي عفتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيحِ

وإعطائي على الإعدام مالي ... وإقدامي على البطل المشيحِ

وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

ثم كتب إلى أبيه أن رَوِّه الشعر، فَرَوّاه حتى كان لا يسقط عنه شيء منه." (١)

وروى ابن عساكر بإسناده إلى أبي العباس أحمد بن يحيى بن تغلب قال:

قال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص: قد رأيتك تعجب بالشعر (وكان عبد الرحمن شاعرًا)، فإذا فعلت فإياك والتشبيب بالنساء فتُعِرّ الشريفة، وترمي العفيفة وتقدر على نفسك بالفضيحة، وإياك والهجاء فإنك تحنق به كريمًا وتستثير به لئيمًا، وإياك والمدح الوقاح وطعمة السؤال ولكن افْخَر بمفاخر قومك، وقُلْ من الأمثال ما تُزيّن به نفسك وشِعْرَك، وتؤدب به غيرك. (٢)

تذوق الأمويين للشعر وعنايتهم بتدوينه :

كان عبد الملك بن مروان خبيرًا بالشعر ناقدًا له، وقد أحس أن مدح بعض الشعراء له جافٍ يصدر عن عاطفة باردة فقال:

تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهـــاركم مكابـــدة وصـــوم ولـــيلكم صـــلاة واقتـــراء

وعندما وفد عليه ذو الرمة ومدحه بقصيدة أطال فيها وصف الناقة، ولم يذكر الخليفة إلا في بيتين اثنين قال له عبد الملك:

ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك؛ فخذ منها الثواب.

بل كان عبد الملك بن مروان يختبر رعيته في الشعر، ويحزنه تضييع بعضهم له؛ فعندما قدمت عليه قبيلة عدوان تقدمهم رجل وسيم عفيف وكان فيهم معبد بن خالد الجدلي، وكان دميمًا فتأخر فيهم؛ فأنشد عبد الملك بعض أبيات ذي الأصبع العدواني وسأل عنها الرجل الوسيم فلم يجد جوابًا، وكان معبد يجيب في كل مرة، فأنقص عطاء الجميل وزاد عطاء معبد." (٣)

بل كان من خلفاء الأمويين من عرف بجودة شعره ، مثل:

يزيد بن بة، والوليد بن يزيد من الخلفاء، وعبد الرحمن بن الحكم من الأمراء.

ومن الجدير بالذكر هنا أن اهتمام الأمويين بالشعر لم يقتصر على هذه الجوانب المتعددة بل امتد أيضًا إلى محاولة جمعه وتدوينه، حيث كلف الوليد بن عبد الملك حمادًا الراوية بجمع الشعر الجاهلي في ديوان.

كل هذه الشواهد تؤكد رواج الشعر وازدهاره في عصر بني أمية وأن امتداد لقوة الشعر الجاهلي .

الشعر السياسي :

لون جديد من الشعر لم يكن للعرب سابق عهد به من قبل وقد برز بظهور الأحزاب السياسية في العصر الأموي إذ كانت الأحزاب المتنافسة على الحكم تستعين بشعرائها لتأييد دعوتهم ومبادئها ومنافحة خصومها، فكان لكل من الأمويين والخوارج والشيعة والزبيرية ومعارضي الحكم الأموي عامة شعراؤهم الناطقون بلسانهم، الذائدون

أما أسباب ظهور الشعر السياسي في العصر الأموي فهي:

١-قيام الأحزاب السياسية من الأمويين والخوارج والزبيريين والشيعة .

٢-شدة الصراع بين الأحزاب على الحكم فكان لكل حزب شعراؤه فالأخطل - مثلاً- يدعو إلى بني أميّة، والكميت يدعو إلى بني هاشم ، وعبد الله بن قيس الرقيات ، يدعو إلى الزبيريين وقطري بن الفجاءة يدعو إلى الخوارج ، وهكذا..

ونتيجة لهذا الصراع الحزبي ارتقى الشعر السياسي وبلغ مرتبة عالية حتى لقد كان أمضى الأسلحة في مناهضة الأعداء والذود عن مبادئ الجماعة السياسية في ذلك العصر.

وفي العصر الأموي ازدهر الشعر الغزلي الذي تفتحت براعمه في صدر الإسلام؛ إذ توافرت جملة من الدواعي لازدهار هذا الفن بأنواعه الثلاثة:

- الغزل الحضري.
- والغزل البدوي.

- والنسيب.

ازدهر الغزل الحضري في حواضر الحجاز، مكة والمدينة والطائف وكان شعراء الغزل الحجازيون منصرفين في كثرتهم إلى اللهو وسماع الغناء والتعرض للنساء، نظرا لما توفر لديهم من المال الذي وصل إلى أيديهم عن طريق الفتوح دونما كد أو تعب ، كما وجدوا أنفسهم بعيدين عن مواطن الصراع ا سياسي في الشام والعراق وخراسان، فانصرفوا إلى الشعر الغزلي وافتنوا فيه افتناناً ارتقى به إلى مرتبة رفيعة لم يبلغها الشعر العربي في أي عصر من عصوره. وكان رائد هذا اللون من الغزل الشاعر القرشي عمر بن أبي ربيعة.

والنوع الثاني :

هو الشعر الغزلي البدوي الذي ظهر جليا في بوادي نجد والحجاز خاصة، وقد عرف شعراؤه بصدق عاطفتهم وعفتهم ومنهم من قاده عشقه إلى الهلاك، وزعيم هذه الطائفة جميل بن معمر الذي اشتهر بحبه لبثينة.

وقد وقف هؤلاء وأولئك جل شعرهم على الغزل ونهضوا بهذا الفن وأخصبوه بمعان جديدة وصور مبتكرة لم يعرفها الشعراء قبلهم.

والنوع الثالث من الغزل :

هو النسيب الذي كان الشعراء يحرصون على الإتيان به في مطالع قصائدهم، وقصائد المديح خاصة.

وقد ارتقى النسيب كذلك والتزمه الشعراء في مطالع جل قصائدهم، وأطاله بعضهم إطالة تلفت النظر كجرير بن عطية.

النقائض :

ظهر شعر النقائض نتيجة لظهور العصبيات القبلية في العصر الأموي بشكل ملحوظ ، فبرز نفر من الشعراء أججوا نيران هذه العصبية. وكان لهذا النوع من الشعر تقاليد معينة تتمثل في اتفاق القصيدتين في الوزن والقافية، ونقض كل شاعر معاني خصمه. وقد نهض هذا الفن على أيدي شعراء العصر الأموي وبلغ غاية لم يبلغها في العصور الأدبية الأخرى .

فبرز بشكل واضح من شعراء النقائض :

جرير والفرزدق والأخطل، حتى لقد اجتمع لهم من هذه النقائض دواوين ضخمة.

ويعاب على (النقائض) ما تضمنته من ألفاظ فاحشة وما فيها من تناول الأعراض وهتك الحرمات والإساءة للآخرين بالقول وكلها أمور نهى الله عنها ، "فعند جرير والفرزدق والأخطل فكل شيء مباح حتى الأعراض من أجل تحقيق أغراض معينة كان يهدف إليها هؤلاء الشعراء، "وقد كثر الحديث عن الأحساب في النقائض، وأكثر شعراؤها من استغلالها في هجائهم لخصومهم وتطرقوا منها إلى مسائل شخصية تتصل بسلوك خصومهم أو سلوك قبائلهم، ولم يتحرجوا من انتهاك الحرمات، وتمزيق الأعراض وإذاعة المخازي، وكيل التهم جزافاً بغير حساب، دون مراعاة للذوق الخلقي أو العرف الاجتماعي"[٥].

شعر الزهد :

إضافة للشعر السياسي عرف هذا العصر لونا آخر من الشعر هو(شعر الزهد)، وقد ظهر نتيجة لوجود حركة الزهد التي شهدها العصر الأموي .

خصائص الشعر في العصر الأموي :

التزم الشعراء الأمويون بناء القصيدة في صورته النموذجية،كانوا يستهلون قصائدهم بالوقوف على الأطلال ثم النسيب، يطيلون فيه

تارة ويوجزون تارة أخرى، ثم ينتقلون إلى وصف الرحلة إلى الممدوح وما كابدوه من مشقات السفر، حتى ينتهوا إلى المديح فيفيضون في تعداد مناقب الممدوح ومآثره من كرم وشجاعة ونبل محتد وغير ذلك، مع جنوح إلى المبالغة والتزويدطمعا في عطاء الممدوح وما يغدق عليهم من مال.

إن ميل شعراء العصر الأموي إلى التكسب بشعرهم لم يكن أمرًا جديدًا في الشعر العربي، فقد بدأ الاتجاه إلى التكسب بالمديح منذ أواخر العصر الجاهلي، ولكنه لم يلق قبولاً لدى الكثيرين، فلما جاء العصر الأموي استشرت هذه الظاهرة وغلب المديح على فنون الشعر الأخرى وظلت له المنزلة الكبيرة طوال العصر العباسي بعد ذلك.

وعلى نحو ما لوحظ في شعر المديح من إتقان الصنعة يلاحظ هذا الإتقان كذلك في فن الغزل الذي أصاب في عصر بني أمية ارتقاء لا نظير له، فقد افتن الشعراء - حضريهم وبدويهم -في ابتكار المعاني الغزلية التي لم تخطر في بال أسلافهم. ولو رجع الباحث إلى شعر ابن أبي ربيعة وحده لوجد فيه فيضاً من المعاني المبتكرة التي لم يسبق إليها، مع اتباع أسلوب جديد يلائم هذا الغزل. وشتان ما شعر شعراء الغزل الجاهليين

وشعر الإسلاميين سواء من حيث ابتكار المعاني أو الافتنان الأسلوبي أو التعبير عن العواطف بها.

ومن الفنون الأخرى التي طرأ عليها التجديد فن الخمريات وقد نهض خاصة على يد الأخطل والوليد بن يزيد.

كما اتسعت دائرة فن الهجاء والمناقضات، حيث نقله الشعراء في ذلك العصر من صورته البسيطة الساذجة عند شعراء الجاهلية إلى صورته المتقنة المعقدة فظهرت فيه أساليب جديدة وافتن الشعراء في ابتكار المعاني والصور الهجائية، وجنحت طائفة من الشعراء الهجائين إلى التمادي في الإساءة اللفظية والصور الفاحشة ونهش الأعراض وذكر العورات.

وتتجلى في بعض أغراض الشعر الأموي روح إسلامية قوية مؤثرة تترك صداها العميق في النفس. ومن المحقق أن القرآن الكريم كان له أثره البين في الشعر الأموي، سواء من حيث الأغراض أو المعاني أو الأسلوب .

أما الخصائص الفنية للشعر الأموي فإن "الظاهرة التي يلاحظها كل متتبع لحركة الشعر في عصر بني أمية هي أن هذا التطور اتجه إلى

المضمون أكثر مما اتجه إلى الشكل" [1] فمضمون القصيدة العربية في العصر الأموي تغير تغيراً واضحاً بسبب هذا الانقلاب الهائل في المجالات جميعا ،السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وبدأ واضحا ما يلي:

- جزالة الألفاظ وقوة المعنى- الاعتماد على التصوير رغبة في إبراز الأفكار والمعاني .
- بناء القصيدة كان على طريقة الجاهلين في تعدد أغراض القصيدة
- التزم الشعراء نظام الوزن الواحد والقافية الواحدة .
- التأثر بألفاظ القرآن .

هوامش :

(١) ضيف، شوقي ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٦١ وما بعدها .

(٢) نفسه ص ٨٠.

(٣) نفسه ص ٩٦.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٢٩٠هـ - ١٩٧٠م ج٢/ ص١٨٧.

(٥) خليف، يوسف: في الشعر الأموي، دراسة في البيئات طبعة مكتبة غريب، ص٥٣.